مجلة الآداب، م٢٨، ع١، ص ص ١٤٣ - ١٥٩، جامعة الملك سعود، الرياض (٢٠١٦م/ ١٤٣٧هـ)

ظاهرة الاستبطان
بين المحددات النفسية واللغوية-الاجتماعية

أمل بنت عبد الله الراشد(*)

أستاذ مساعد في تخصص اللسانيات، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض

(قدم للنشر في ٢٢/ ٧/ ١٤٣٦هـ، وقبل في ٢٥/ ١١/ ١٤٣٦هـ)

الكلمات المفتاحية: استبطان، انثروبولوجي، شفرات لغوية، فروق لغوية، ثقافة

ملخص البحث: يتناول هذا البحث مسألة الاستبطان في تشكلها الذي يتحدد في حالات ثلاث. وهذا التشكل يتحقق في إطار يقوم على بعدين: الواعي واللاواعي. كيف ذلك؟ وأيهما أقوى وأخطر في تشكيل هذه الحالات؟ وما أثرها على الفرد منتجًا ومتلقيًا، وعلى اللغة نفسها؟ وهل للاستبطان قوة تجعل منه مسيرًا ومراقبًا للجماعة في كيفية استعمالها للأنماط اللغوية؟ يتتبع البحث مسألة الاستبطان باعتبارها تتحقق في مستويات مختلفة؛ النفسي والاجتماعي والأنثروبولوجي. ويناقش بعض الأسئلة التي تطرحها هذه الفرضية. من خلال النظر في بعديه: النفسي والاجتماعي الثقافي؛ هل ثمة ما يجمع بين البعدين ليمكن القول إن هناك مشتركات في الأساس النظري لهذا المصطلح؟ وهل ثمة آليات تصحب الاستبطان في البعدين؟ ويسعى البحث إلى غايته من خلال تناولها بمفهومها الأنثروبولوجي الذي يكشف عن علاقة اللغة بالجماعات اللغوية، وما تستبطنه هذه الجماعات من قيم رسمت لها ما تتمثله في سلوكها الاجتماعي واللغوي. ويمكن القول إن اللغة من أهم العوامل التي أسست وكرست المستبطن، إلا أنها من جهة أخرى، ناتج مهم ورئيس لهذا المستبطن.

(*) دُعِم هذا البحث من قبل مركز بحوث الدراسات الإنسانية – عمادة البحث العلمي – جامعة الملك سعود.

مقدمة

تستبطن المجتمعات بفعل تكوينها الثقافي ما يؤثر بدرجة رئيسة في بنائها الفكري الثابت والمتغير، وكل هذا بدوره يحدد الأنماط اللغوية المناسبة والمتسقة مع هذا البناء. إن اللغة الناتجة عن المستبطن الثقافي والاجتماعي، هي في الواقع أحد العناصر المهمة الشارحة والمترجمة لهذا المستبطن.

يتناول هذا البحث مسألة الاستبطان بوصفها تتشكل في حالات ثلاث، وتعمل على أساس تشكلها وفي الإطار التي تتنفذ فيه. ولكل واحدة من هذه الحالات سمات مستقلة، وفقاً لزاوية النظر والبعد الميتالغوي. وجدير بالقول إن هذه الحالات الثلاث تتنفذ وتتشكل في إطار يقوم على بعدين؛ البعد الواعي وتتشكل فيه عملية الاستبطان النفسي، أما البعد الثاني فهو اللاواعي وتتشكل فيه عمليتا الاستبطان الاجتماعي والثقافي. وفي الواقع إن البعد الثاني أخطر وأشد تأثيرًا؛ حيث تُصنع اللغة تحت تأثيره، من حيث دلالاتها البعيدة، ومن ثم تتأسس المجتمعات وفق هذا التأثير اللغوي العميق في الوقت نفسه. في حين أن البعد الواعي للاستبطان يركز على كيفية الانتقاء الذهني المقصود للفرد، والذي يمكن وصفه بالانتقاء الموفق، وذلك على المستويين المعجمي والتركيبي، في وقت إنتاج الفرد الكلام أو في فهمه له أثناء تلقيه.

إن هذا البحث في دراسته لمسألة الاستبطان، يتتبعها باعتبارها تتحقق في مستويات مختلفة؛ النفسي والاجتماعي والأنثروبولوجي. فكيف يؤثر الاستبطان في عملية صنع اللغة؟ كيف يمكن له أن يتحكم في اختيارات الفرد وانتقاءاته الكلامية في جميع المستويات اللغوية؟ وكيف يظل الاستبطان عبر الأجيال المتعاقبة كامناً في ذهن الجماعة وثقافتها، يسيّر أنماطها اللغوية ويراقب كيفية استجابة المجتمعات لفعله ذي التأثير العميق؟ ويهمنا في هذا البحث النظر في هذا التحقق ببعديه النفسي والاجتماعي الثقافي، هل ثمة ما يجمع بين البعدين ليمكن القول إن هناك مشتركات في الأساس النظري لهذا المصطلح؟ وهل ثمة آليات تصحب الاستبطان هنا وهناك؟

على الرغم من تناول هذا البحث لمسألة الاستبطان بمفهومها النفسي، ولتأثير هذا المفهوم على كيفية إنتاج الكلام وفقاً لمبادئ تشومسكي، إلا أن البحث يسعى إلى غايته من خلال تناولها بمفهومها الأنثروبولوجي الذي يكشف عن علاقة اللغة بالجماعات اللغوية نفسها، وما تستبطنه من قيم رسمت لهذه الجماعة ما تتمثله في سلوكها الاجتماعي وسلوكها اللغوي. ويمكن القول إن اللغة من أهم العوامل التي أسست وكرست المستبطن، إلا أنها من جهة أخرى، هي أيضاً ناتج مهم ورئيس لهذا المستبطن.

١ - الحالة الواعية للاستبطان:

يشرح مفهوم الاستبطان في علم النفس عملية

واعية، يمارسها المرء بوعيه ليدخل إلى لا وعيه، ويتمكن من مراقبة انفعالاته الداخلية، وربطها باستجاباته الذاتية وردود فعله تجاه الخارج. وغايته في ذلك فهم نفسه ومراجعة ذاته ومراقبة سلوكه، وهذا السلوك قد يكون لغوياً بطبيعة الحال.

وقد قدمت المدرسة البنائية المنهج الاستبطاني بوصفه المنهج الوحيد في علم النفس الذي يلجأ إليه علماء النفس عندما يتعذر عليهم مشاهدة ما يدور داخل نفس الإنسان، وعندها يكون الحل بتوجيه المرء إلى النظر داخل نفسه، وتعقب ما يدور فيها من ظواهر نفسية (شمس الدين، جلال، ٢٠٠٣م، ص١٨). وقد اتخذ أصحاب هذه المدرسة الاستبطان منهجاً لأنهم كانوا يرون أن هدف علم النفس هو التشريح، بقصد الوصول إلى نتائج تتعلق بالبناء والتركيب وليس بالوظيفة. وفي هذا الإطار يرى تتشنر أن (الشعور) هو مجموع خبرات وتجارب الشخص في موقف محدد، أما (العقل) فهو مجموع خبرات وتجارب الشخص في حياته كلها، وضبط التجربة النفسية فيكون باستبطان ما يجري في الشعور والعقل للفرد (شمس الدين، جلال، ٢٠٠٣م، ص١٩).

وفي السياق النفسي أيضاً تُراقب زلات اللسان. ويرى فرويد أن زلات اللسان أمر مهم كالأحلام، لأن هذه الزلات حسب افتراضه تكشف عن العقل الباطن أو اللاوعي، إلا أن العلماء الباحثين في علم اللغة النفسي اختلفوا مع فرويد في ذلك، وتجاهلوا تفسيره فيما يتعلق بالأخطاء الكلامية، وقالوا إن هذه الزلات تسمح لنا باختلاس النظر داخل عملية إنتاج الكلام، لأننا نعرف ما كان ينوي المتحدث أن يقوله، ولكن الخطأ الكلامي غير المقصود يجمد عملية إنتاج الكلام للحظة وجيزة، لكي يلتقط المتحدث الآلية اللغوية في لحظة واحدة من لحظات إنتاج الكلام. إن النظر إلى عملية إنتاج اللغة وفهمها تزامنيًاً في وقت واحد عند أي نقطة زمنية، يصل بنا على اعتبارهما مهمتين لغويتين نفسيتين متناظرتين، فبينما تشتمل الأولى على توليف التراكيب، فإن الثانية تشتمل على تحليل تلك التراكيب (سكوفل، توماس، ١٩٩٤م، ص١٧).

لم يهمل علم النفس في بعض مناهجه ما هو مستبطن داخل المرء، وقد ركز على هذا المستبطن في محاولة منه لفهم ما يجري في الخارج، إلا أن النظر إلى هذا المستبطن ينطلق من الفرد نفسه، وليس من الجماعة. أي أنه ينطلق من تجربة شعورية خاصة فردية، بمعزل عن ربطها بالتفكير الجمعي، وبالثقافة التي أسهمت في صناعة هذا التفكير.

إن ما يراقبه علماء النفس من خلال ما هو مستبطن، يشمل كل ما يجري في الخارج من سلوك لغوي وغير لغوي، على أن يكون اللغوي متضمناً للأحكام فقط، لأن الأحكام هي التي تتعلق بالتجربة الخاصة الفردية. وهذه الأحكام تؤخذ ضمنياً مما قيل، وهي متعلقة فقط

بالتعبيرات التي تتضمن أحكاماً ذاتية قد تتفاوت من شخص لآخر، كتلك التعبيرات الواصفة للجو، أو لمستوى الخدمة، أو لدرجة الجمال، وربما أيضًاً بعض التعبيرات الواصفة لسلوك الآخرين، إلا أنَّ هذه الأخيرة يكون تحليل المستبطن الأنثروبولوجي المحرك لها، أعمق منه في التحليل النفسي، ذلك أن التعبيرات التي تتضمن أحكامًاً على الآخرين هي تعبيرات صنعتها الثقافة بصفة كاملة، وهي كذلك وإن بدت في ظاهرها وصفاً قد يعود للذوق أو الانطباع. وهذه الأحكام قد صنعتها الثقافة من خلال ترسيخها في الذهنية الجمعية اللاواعية، لتنعكس في اللغة وتظهر وتنكشف من خلالها. والسؤال الذي يمكن طرحه هنا: هل يشمل ذلك جميع الأحكام الواصفة؟ أي: هل ستتفق التعبيرات الواصفة للقيم التي يحملها شخص ما، مع التعبيرات الواصفة لشكله على سبيل المثال، أو لقدراته الذهنية، أو لسلوكه اللغوي البسيط الذي لا يتصل بالقيم بصفة مباشرة؟ هل (هو رجل ذكي) و(هو رجل كريم. أو شجاع) متساويتان في النظر إلى خلفية ما تتضمنه من أحكام؟

يمكن القول إن الأمر الواضح هنا هو أن الاستبطان في الاتجاه النفسي هو عملية فردية من حيث الكيفية ومن حيث التحليل. في حين أنه يمكن القول عنه من منظور أنثروبولوجي أنه عملية جمعية. وهو في الاتجاه النفسي عملية تُمارس بوعي لتذهب نحو اللاوعي فتستبطنه لتحقق غرضاً ترومه حسب السياق وما يفرضه. أما في الاتجاه الأنثروبولوجي فعملية الاستبطان عملية في كل مراحلها تحدث في اللاوعي، ويقع على الفرد فعلها وتأثيرها دون مشاركة مباشرة منه أو واعية.

لقد استعان تشومسكي بمفهوم الاستبطان النفسي في شرح نظريته التوليدية في إنتاج اللغة، وهذا أمر مفهوم؛ فهو يقول: "وقد يكون من المفيد والممكن أن نقوم بدراسة اللغة في أبعادها السياسية-الاجتماعية، لكن هذه الدراسة لا يمكن أن يُقام بها إلا بعد أن نفهم فهماً وافياً خصائص اللغة ومبادئها بالمعنى الضيق، أي بالمعنى النفسي الفردي. وستكون الدراسة بذلك دراسة للكيفية التي تختلف وتتصل بها الأنظمة الماثلة في عقول/ أدمغة متكلمين يتفاعل بعضهم مع بعض ضمن مجموعة من البشر تتحدد جزئياً على الأقل عن طريق عوامل غير لغوية" (تشومسكي، نعوم، ١٩٩٠م، ص٤٥).

إن توظيف مفهوم الاستبطان في النظرية التوليدية يتعلق بعمليتي الاكتساب والإنتاج اللغوي؛ فالطفل على سبيل المثال يستبطن من لغة أمه لا شعورياً مجموعة متكاملة ومنضبطة من قواعد صوتية، وقوانين صرفية تركيبية دلالية، دون إدراك منه لما يفعل، مما يجعله غير قادر على وصف هذه القواعد أو على شرح كيفية اكتسابها (هجمان، ٢٠٠٠م، ص٣٦). ولكن الأمر لا

يكون بالصورة ذاتها في مرحلة الإنتاج، حيث تصبح عملية الاستبطان في هذه المرحلة عملية واعية، حيث إن المنتج يمارس واعياً مراجعة ما استبطنه في ذهنه في مرحلة الاكتساب اللغوي، ليحدد في ضوء الكفاية اللغوية التي يصنعها هذا المستبطن، الأداء اللغوي المناسب للموقف. فهو إذن يستبطن المستبطن واعياً ليحدد ويختار ويغير ويحول، باعتبار كل هذه الأفعال هي ممارسات ذهنية تصاحب عملية إنتاج الكلام.

إن الاستبطان في علم النفس، وفي قواعد النظرية التوليدية يعمل بنفس الآلية والكيفية، إلا أنه في علم النفس يربط المستبطن في الشعور والعقل الكامن خلال التجارب والخبرات الفردية، بردود الفعل وشكل الاستجابات الخارجية. أما في النظرية التوليدية فيقوم الاستبطان على ربط بين المستبطن في الذهن مما اكتسبه المرء من حصيلة لغوية على مستوى البناء والمعجم والتركيب في مراحل الاكتساب الفعلية، والأداء اللغوي الناتج عن توليفة ينفذها المنتج من خلال مراجعته الواعية لهذا المستبطن.

٢- تحول الاستبطان إلى الفروق اللغوية:

يرى عدد من المنظرين لقضية تأثير اللغة في تكوين الإنسان وتشكيل دواخله، وانعكاس ذلك على قضايا الاستخدام اللغوي، أن كثيراً من حالات التباين بين الناس يعود إلى جذور مختلفة من الاستبطان، ويشمل ذلك الجماعة الصغيرة في البيئة الواحدة.

إحدى أهم تلك الفرضيات كانت قد اعتمدت على أن البناء الاجتماعي هو ما يحدد السلوك اللغوي، وهي النظرية التي تبناها عالم اللسانيات الاجتماعية بازل بيرنستاين، وأسماها (نظرية العجز). وقد كان وورف أيضاً قد ادّعى صحة هذا الاتجاه في كل الثقافات البشرية؛ حتى إن التفكير واللغة من وجهة نظره يعتمد كل منهما على الآخر من جهة، وهما معاً من جهة أخرى يعتمدان على تجارب بيئاتها الخاصة الطبيعية بكل مكوناتها الثقافية. وتترسخ هذه العلاقة الثنائية بصورة وثيقة بين اللغة والمجتمع، إلى الدرجة التي تصبح فيها التجارب الاجتماعية الخاصة والمعايير الاجتماعية مُحدِّدة لمختلف أنماط السلوك اللغوي لدى الفئات الاجتماعية المختلفة.

يمكن القول في هذا السياق إن أوضاع كل فئة اجتماعية تختلف عن بقية الفئات الأخرى؛ لأن عوامل البيئة المكونة لنسيجها الاجتماعي ذات طابع متميز بها، كما أن شروط التهيئة لنوع الحياة التي تعيشها تلك الفئة ذات طابع محدد وخاص بها. وبذلك تكون حاجات التواصل بينها مختلفة أيضاً، تبعاً لاختلاف الأنماط الاجتماعية السائدة فيها؛ ومن أجل ذلك تكون أطر التواصل في المحصلة متعددة في كل مجتمع بشري، وفقاً لتعدد فئاته أو طبقاته أو جماعاته المتباينة في هياكلها الاجتماعية، وسقف أهداف التواصل لديها.

وحسب نظرية بيرنستاين، فإنَّ المجتمعات الصناعية الحديثة مصنفة على أساس طبقي؛ فالطبقة التي يُصنف الناس إليها، تكون محددة بعوامل اقتصادية واجتماعية، وبالتالي ثقافية أيضاً، لينخرط فيها أناس من جماعات مختلفة، ويجتمعون في انتمائهم إلى تلك الطبقة الاجتماعية. وفي الغالب يكون التقسيم في المجتمعات الصناعية قائماً على نوع العمل الذي يقوم به الفرد؛ مما يجعل المجتمع الصناعي ينقسم فيه العمل بدرجة رئيسة إلى فئتين كبيرتين؛ إحداهما الطبقة الدنيا (طبقة العمال)، والأخرى الطبقة الوسطى (وتتضمن وظائف الإدارة والتشغيل المتوسطة من المهندسين والأطباء والمحامين وأساتذة الجامعات وغيرها). ويمكن القول إنه بطبيعة الحال فإنَّ كلاً من الطبقتين تحصلان على ممتلكات ومنافع مختلفة عن الأخرى، من حيث الثروة والتعليم والقدرة على الحركة، وكلما حصلت فئة من فئات أي من الطبقتين على مزيد من المكاسب أو المقتنيات من بعض ما له تقدير عند الآخرين في ذلك المجتمع، فإن الفئة التي تمتلكها تتخذ درجة أعلى ضمن الطبقة الاجتماعية. وهذا يعني استبطان بعض التعبيرات الجديدة المرتبطة بأفكار ذلك الارتقاء في ثنائية التفكير واللغة المشار إليها آنفاً. وعليه، تتعدد درجات الأساليب اللغوية وفقاً للتنوع الطبقي في فئات المجتمع المختلفة.

يمكن القول إن مفهوما (القوة) و(المستوى المرموق) يصبحان هما المتحكمان في تصنيف الفئة من جهة، وهما أيضاً المعيار في اختيار الأسلوب المناسب في التعبير، كما هو في الملبس والاستهلاك والتعامل الحسي-الحركي. وبطبيعة الحال فإن هذا يؤثر في التوجه النفسي-الاجتماعي للأفراد، بوصفهم أفراداً في أي من الجماعات التي ينتمون إليها. يمكن هنا على سبيل المثال تحديد التعليم الرديء للطبقة الدنيا، وضعف القدرة المالية فيها أيضاً، كما أن فقدان المستوى المرموق في وضعها الاجتماعي يؤدِّي إلى دمج تلك الأفكار في اللاوعي، لاستبطانها عند إرادة التفاعل مع الآخرين (ومنطقة اللاوعي هي التي تكوّن المعايير وطرق السلوك للأفراد مع بقية عناصر المجتمع، لذلك تكون لها قيمة كبرى في بناء الثقافة). فيكون على هذا الأساس توزيع الأدوار الشمولي، أو العلاقات بين الأفراد المختلفين داخل الجماعة (الأب والأم والأولاد على سبيل المثال)، توزيعاً لا يقوم على معايير عقلانية، بل محددة سلفاً تبعاً للأدوار المحددة لكل فرد، وهذه الأدوار يتقبلها الفرد على أنها الصيغة الوحيدة الممكنة. إن هذا الأمر يؤدي إلى أن العلاقات بين أفراد هذه الطبقة مرسومة بدقة، ولا تحتاج إلى التعبير عنها لفظياً، كما أن الخلافات بين أفرادها أيضاً لا يُعبر عنها بأي شكل من أشكال التواصل، ولا تُحل بالنقاش أو عرض الحجج المناسبة لكل موقف، وبصورة موازية لا

يجري التعبير عن العلاقات السببية عند تواصل أفراد تلك الطبقة. وحيث إن بناء العلاقات المعتاد لدى عناصر الطبقة الدنيا محدد مسبقاً، فإن العلاقات التواصلية تنصرف بدلاً من عرض الحجج إلى صيغ من الأوامر والأسئلة، وبدلاً من عبارات المشاعر إلى قوالب ثابتة، وبدلاً من استخدام المقولات المجردة إلى ألفاظ حسية مباشرة من واقع البيئة القريبة والعناصر المتصلة بحياتهم.

يمكن القول بصيغة أخرى، إن أطفال الطبقة الدنيا بأثر من ظروفهم الاجتماعية العامة، وبأثر من تكريس تلك النمذجة الاجتماعية، يتعلمون لغة محدودة ضمن نسق قواعدي يتناسب مع درجة تلك اللغة من البساطة وسطحية المنطق، لكي تعكس ما يستبطنه تفكيرهم عن علاقات الواقع وعناصره في حياتهم البسيطة، وهو ما يسميه بيرنستاين (الشفرة اللغوية المحدودة).

في المقابل ينتج عن ظروف أفراد الطبقة الوسطى، تمتعهم بوضع تعليمي جيد، وتحقيقهم لمستويات عالية من الدخل، مع ما يتبع ذلك من سمعة ومكانة اجتماعية، وذلك لكون أعمالهم قائمة على الجهود الذهنية بالدرجة الأولى. وهذا كله يقود إلى صيغ من التواصل التفاعلي المفتوحة، وغير المحددة بأطر مصنوعة سلفاً بين أفراد الفئة، أو في التعامل مع مكونات الحياة المختلفة. وبتلك الهيئة تكون النمذجة لأفراد الطبقة الوسطى؛ فتصبح أطر التفاعل غير موجهة على أساس شمولي يتحقق تحديده مسبقاً لمعايير معطاة لتوزيع الأدوار (الرجل/ المرأة، الوالدين/ الأولاد، الأخوة الأكبر/ الأصغر، .... ومجموعة من تلك الثنائيات والتراتبيات المعهودة في الطبقات الدنيا)؛ بل تكون هياكل التفاعل قائمة على أسس عقلانية ومنطقية. وفي الواقع فإن علاقات الأدوار تكون موجودة، ولكنها تتضح من خلال الحجج المقبولة، كما أنه في الغالب لا تحل المشكلات على أساس من علاقات القوة والتسلط، بل من خلال طرق يسودها التأمل في المقدمات والمكونات المختلفة والنتائج، وبالنظر في جوانب المشكلة المتعددة وعناصر الحل. كما أن المصالح يجري ذكرها دون وجل أو تردد، ويُعلل وجودها تعليلاً واضحاً؛ أي أن التفاعل الاجتماعي يكون مؤثراً بدرجة عالية فيما يستبطنه المرء من تواصل لفظي. وعليه؛ يتعلم الطفل المنتمي إلى هذه الطبقة طريقة كلام لا تشبه ما يتعلمه أطفال الطبقة الدنيا الذين تتصف طريقة كلامهم الذين تعلموها بأنها غير محددة أو دقيقة. فالذي يتحقق مع أطفال الطبقة الوسطى هو اكتسابهم للغة مرنة ومجردة وغنية، ويمكن وصفها بأنها صالحة لأن تكون أداة استخدام فاعلة ومعمقة. لذا يمكن القول إن الطبقة الوسطى تملك نسقاً من القواعد اللغوية يتصف بالسعة والغنى والدقة، وهو ما يمكن تسميته (الشفرة اللغوية الموسعة).

ويعد التنوع في خيارات الشفرة والتحول الأسلوبي من الوسائل المتاحة في أغلب ثقافات البشرية؛ إذ توجد جوانب تخصُّ البنى الصغرى والعوامل التفاعلية، من العمر إلى العلاقة الشخصية مع المتكلم ووضع القرابة، وموضوعات الحديث، والحقوق والواجبات، والموضع المكاني والزماني ... إلخ. ويركز بعض أصحاب التوجه الاقتصادي في تحليل المجتمعات على أن معايير الطبقة العليا وأعلى الطبقة الوسطى هي التي تسود في رسم المقاييس المثالية، حيث يكون رأس المال اللغوي قائماً على رصيد هاتين الفئتين، وخاضعاً لسيطرتهم. ويعنى أصحاب هذا الاتجاه –ومنهم بورديو– بمبدأ (السيطرة)، وتتبع تحويل تلك الصيغ الرسمية والشفرة المرموقة إلى مرجعيات قائمة، إضافة إلى مقاييس الصحة والخطأ، والكم المناسب مقابل الكم القليل أو المبالغ فيه. وفي المقابل توجد خصائص من عدم الرضا عند أدنى الطبقة الوسطى بشأن علاقتهم بإنتاجهم اللغوي؛ ويتمثل عدم الأمان هذا في أشكال من المبالغات الواضحة، لأن تعبيراتهم ليست منطلقة من واقعهم الاجتماعي، ولا مرتبطة بمعايير حياتهم ومقاييس قيمهم الذاتية، بل موجهة إلى ما صنعته الفئتين الأخريين (أعلى الطبقة الوسطى، والطبقة العليا) (Bourdieu,1991, p13). فهي لا تتعدى عمليات التقليد والمحاكاة لما يظنونه (النموذج المثالي)، وهم بطبيعة الحال لا يستطيعون تمثله.

كما توجد حالة عدم الأمان في نماذج استخدامات المرأة اللغوية في مقابل خيارات المرأة؛ ففي المجتمعات التي مازالت المرأة فيها تعاني من التقسيم التقليدي لطبيعة العمل بين الجنسين، يمكن للمرأة أن تبحث عن المبادرات الاجتماعية من خلال الإنتاج والاستهلاك الرمزي فحسب، وعليه تكون مضطرة إلى السعي نحو الحصول على فرص المنافسة الشرعية، وهذا يجعل خياراتها اللغوية المنطلقة من استبطان تلك الأوضاع الاجتماعية، في حال مقارنة دائماً باستخدامات الرجل بوصفها (المعيار النموذجي) (Mesthrie, et.., 2011, p340).

من الأمثلة التي تشرح استبطان أي من الشفرتين: أن يقوم طفل صغير باللعب في الغرفة التي يقرأ فيها والده جريدة في المساء على سبيل المثال، فيقف الطفل فوق الكرسي، ويبدأ في اللعب بمفاتيح النور، يطفئها مرة ويشعلها أخرى، ثم يعود إلى إطفائها. حسب نظرية بيرنستاين؛ فإن الأب الذي ينتمي إلى الطبقة الدنيا سيتفاعل بطريقة مختلفة عن الأب المنتمي إلى الطبقة الوسطى، ففي الحالة الأولى سيقول الأب: أشعل النور حالاً! أو سيقول: توقف عن اللعب بمفاتيح النور! وإن سأل الطفل: لماذا؟ فإن الأب سيجيبه بقوله: لأني أمرتك بذلك. أو لأني قلت ذلك. أو لأن عليك أن تشعله؛ أي أنه سيصدر الأمر بتنفيذ المطلب عوضاً عن تبريره. وهو في كل حال لن يبرر

إصدار الأمر، إنما سيلجأ إلى التذكير بالإرادة وبالقوة التي يمتلكها الأب في توزيع الأدوار من خلال منظومة الاستبطان في الشفرة المحدودة. وعليه فهو لن يتوقف عن إعطاء التوضيح المفصل فحسب، بل سيمنع أي مناقشة إضافية للموضوع. وخلافاً لذلك سيكون سلوك الأب المنتمي إلى الطبقة الوسطى، فهو سيكون منزعجاً أيضاً، وسيطلب من الطفل أيضاً إعادة إشعال النور، لكنه سيحاول فهم موقف الطفل، ودرجة النضج التي وصل إليها طفله في مراحل نموه وتطور قدراته العصبية والذهنية. وعليه؛ سيلجأ إلى معايير واقعية وملموسة، وسيجعل سلوكه موجهاً إليها؛ كأن يقول على سبيل المثال: هل تعلم أني لن أستطيع القراءة في حال استمرت عملية إطفاء النور وإشعاله؟ لأن عيني ستضطر إلى اعتياد الظلام، ثم النور مرة أخرى ... إلى آخره من الشرح. لكنه في كل الأحوال لن يستخدم دوره الأبوي في تحديد مصدر السلطة، والتبرير لإصدار الأمر بالتوقف عن العبث، بل بتوضيح الموقف، وإعطاء الطفل فرصة للتمكن من إجراءات فهم إضافية، ومن ثم بعد ذلك أيضاً امتلاك إجراءات القول المقابلة، التي ستكون أكثر تعقيداً مما قبلها.

تشير نظرية بيرنستاين بوضوح إلى أن تحديد اللغة يتحقق انطلاقاً من تشكل البناء الاجتماعي، لأن ذلك التحديد ليس شاملاً للبشر أو الثقافة؛ بل هو قائم على نمذجة إدراكية. وهو ما عبرت عنه هذه الدراسة بالاستبطان غير الواعي المؤدي إلى تلك الفروق في الاستخدام اللغوي. فهذه الإجراءات تمر من خلال مرحلة الأقلمة الأولية، التي تتحول فيها القيم الاجتماعية والمعايير السلوكية في إطار مباشر في صورة صيغ سلوك لغوي ينقلها ويعبر عنها بدقة.

توجد طريقتان في النظر إلى الفروق بين الفرد من بيئة معينة وغيره من البيئات الأخرى؛ الأولى تتمثل في أن تُصنف تلك الفروق بوصفها قمة جبل الثلج، وهي إشارة إلى أن النسقين المختلفين يعملان بطريقة فاعلة. أما الطريقة الثانية، فهي أن يلاحظ المرء كل الأشياء التي تنقص الآخر مقارنة به، وهي نظرة مطابقة لنظرية العجز. فالصنف الأول –ويمثله في العصر الحاضر الشعب الأمريكي خير تمثيل– يستخدم نظرية العجز؛ وبذلك يرى أنه الأفضل، وأن أي شيء آخر هو أقل من (الأفضل). كما أن أي أحد يضع هذه النظرة موضع تساؤل، أو يشكك في تلك التراتبية هو أحمق أو غير موضوعي، مثلما كانت وسائل الإعلام في الولايات المتحدة الأمريكية، تصف تلك الأصوات قبل البريسترويكا بأنها شيوعية. وعلى هذه الأرضية كان انتخاب رونالد ريغان –ولو جزئياً– في غمرة الحماس بمزاج الرقم واحد. وعلى الرغم من أن نظرية العجز لها بعض المزايا، إلا أنها تُعد سجناً؛ تقفل الأبواب على المؤمنين

بها في الإطار الثقافي-الاجتماعي، داخل مبنى قديم دون نوافذ. وبهذا ينزل أصحاب هذا النموذج عن الثقافة؛ فحتى إن حدث وعرفوا قواعد لغة أخرى ومعجمها، فإنهم لا يستطيعون التواصل من خلالها، إلا إذا عرفوا العالم الذي أسهم في إثرائها بعناصره الفكرية التي تُستقى من الثقافة (Agar, 2012, p18).

تعرضت فرضيات التحول من الأبنية الاجتماعية إلى الأساليب اللغوية إلى كثير من النقد، ليس فقط في جانبها الاجتماعي، بل أيضاً في الجانب اللغوي. إذ يستبعد اللسانيون بأن تكون أنساق اللغة لا تعدو كونها ظلاً للأنساق الاجتماعية؛ وكأن مؤسسة هائلة التكوين، ومتعددة المداخل ليست ذات أنظمة متكاملة ومستقلة، قد تتأثر بأنساق اجتماعية أو نفسية أو تاريخية أو دينية أو عرقية، لكنها تنتج النمط على غير ما يصنعه أي من تلك الأنساق. وقد تطور هذا النقد إلى نظريات سوسيولسانية أخرى، اتجهت في طريق مضاد لنظرية العجز، وركزت على علاقات تحكم تلك الإجراءات، لتظهر -كما يتضح في المبحث اللاحق- أن اللغة هي التي تؤثر في الظواهر الاجتماعية. لكن في كل الأحوال يبقى الاستبطان هو العنصر الرابط للبنيتين الرئيستين في تطور حياة الإنسان، وتكوينه البيئي، وهما: (اللغة) و(البناء الاجتماعي).

٣- تحول الفروق اللغوية إلى سمات ثقافية-اجتماعية.

إن محاولات موضعة الإنسان في وسط مجموع عاداته وتقاليده، تتخذ اتجاهات متعددة، وتستخدم طرقاً تكتيكية متنوعة، إلا أنها بمجموعها نابعة من استراتيجية فكرية واحدة، يسميها كليفورد غيرتز (غيرتز، كليفورد، ٢٠٠٩م، ص ص١٣٨-١٣٩) (التصوير النضدي Stratigraphic)، ويشير غيرتز بهذه التسمية إلى العلاقات بين العوامل الحيوية البيولوجية، والعوامل السيكولوجية، والعوامل الاجتماعية الفاعلة في حياة الإنسان. وفي هذا التصور يكون الإنسان مركباً من مستويات متعددة متراكبة، يستند الأعلى منها على ما هو أسفل منه، ويكون دعامة لما هو أعلى منه. ويؤكد غيرتز على أنه عندما يقوم المرء بتحليل الإنسان فإنه يقشر هذه الطبقات واحدة إثر أخرى، بحيث تكون كل واحدة منها مكتملة وغير قابلة للاختزال، وعندما ننزعها نكشف تحتها عن طبقة أخرى من نوع مختلف تماماً، فإذا نزعنا أشكال التراث وألوانه المختلفة، وجدنا دون ذلك الثوابت البنيوية والوظيفية للنظام الاجتماعي. وتحت كل ذلك العوامل السيكولوجية التي تمدها بالحياة، ثم يجد المرء نفسه بعد ذلك في مواجهة الأسس الحيوية البيولوجية للإنسان. إن هذا التصور يؤكد أن الثقافة من المكوّنات الأساسية، وهي في ذاتها مكون له أهمية قصوى في طبيعة الإنسان. والإنسان في تكوينه المركب من هذه العناصر (الطبقات)، تتحدد لديه سمات لغوية تنسجم مع هذا

البناء القائم على التنوع. ويمكن لهذه السمات اللغوية أن تشرح بدرجة عالية الرموز الثقافية التي ينتمي إليها المجتمع، والفرد بوصفه عنصراً رئيساً في المجتمع.

تحتل فكرة التأثير الكبير للغة في مكونات الحياة الاجتماعية لدى كثير من المجتمعات البشرية مركز الثقل في الاتجاهات التي تنظر إلى اللغة بوصفها تابعاً للسلوك اللغوي. فيكون التأثير المتبادل بين الأيقونات اللغوية ومكونات التفكير ناشئاً عن كون السلوك الثقافي وانعكاساته الاجتماعية منطلقة من قوالب لغوية مؤطرة لأنماط من النمذجة والتصنيف والاصطفاف دون وعي من الفرد في إطار البيئة التي يحس بانتمائه إليها وقربه منها.

يمكن القول إنه في كل هذه الحالات، وبهذه الطريقة من التحليل، تنشأ عن هذه المقومات اللغوية الفاعلة إمكانات كبيرة، لتكوين الفئات الاجتماعية الخاصة؛ وبواسطة تلك التكتلات تتشكل السمات المميزة لأنساق القواعد الاجتماعية. وهي أيضاً تمثل (شفرات) وذلك (للالتزام بتلك المعايير الاجتماعية من جهة، والتصنيف الفئوي وفقاً لها من جهة أخرى). وهذه الشفرات هي ما يقود إلى مدونات السلوك (العرفية) لدى كل جماعة يتوجهون إليها في حالات الاستئناس بالأعراف، ويستبطنون من خلالها مسالك الدستور الاجتماعي، الذي تقره أغلبية الجماعة، وتمليه –فيما يظنون– ثقافة البيئة، والتاريخ المشترك الذي يُجمع عليه أفرادها، ويجلّون باعتزاز ما يحمله من قيم وعادات سلوكية. لكن جميع تلك المعايير وما يرتبط بها من تطبيقات، تصبح من خصائص هذه البيئة الاجتماعية دون غيرها.

وتبقى قضية الصحة اللغوية أو المعيارية المعتمدة لأحد الأنماط أو التحيز لها، هي العامل الحاسم في تكوين (النموذج اللغوي). وهو عادة ما يكون ذلك النمط المستخدم في التعليم والخاص بالطبقة الوسطى؛ وهو أيضاً ما يشكل نسق القيم المفضلة في المجتمع. والجدير بالذكر أنه يلاحظ تاريخياً بأن تسمية إحدى اللهجات لتكون هي النموذج اللغوي، وبقية اللهجات بأن تكون أدنى منها في المستوى، هو حكم اجتماعي–سياسي، وليس حكماً لسانياً. كما أنه في كثير من بلدان العالم تكون اللغة الوطنية النموذجية هي لهجة إحدى الثقافات المهيمنة على الجاه والقوة (Akmajian, et.., 2001, p284).

يمكن القول إنه من هنا لم تعد العوامل الاقتصادية (من قضايا الوظيفة والدخل والمستوى المعيشي)، أو الاجتماعية– النفسية من الجاه والمكانة الاجتماعية، أو العرق واللون وغيرها من الأمور الموضوعية، هي الحاسمة في تحديد الطبقة، ودرجة الفرد فيها وتلاؤمه معها؛ إنما هناك ما قد أصبح يعدّ أهم من كل ذلك، وهو (طريقة الكلام)، التي ينظر إليها في هذا الاتجاه بوصفها (صيغة التعبير الرمزية) عن هوية الانتماء إلى

البيئة الاجتماعية. لذلك فإن اللغة تؤثر بصورة مباشرة وجوهرية في ملاحظة الفئات الاجتماعية، وكذلك في الحكم عليها، أو تصنيف بعض الأفراد إلى أي منها.

كانت إحدى أبرز النظريات في هذا الاتجاه ما قدمه ويليام لابوف (Labov, 1972, p243)، فيما أسماه (الفروق اللغوية)؛ حيث أنتجت نظريته مصطلح (اللهجة الاجتماعية sociolect)، التي تكون وظيفتها الأساسية ليست في التواصل مع بقية أفراد الفئة الاجتماعية، مع أنها مهمة جداً في تلك الوظيفة، ولا تجري عملية التواصل الناجح دون استخدامها؛ لكنها ذات أهمية قصوى في تحقيق الانتماء إلى تلك الفئة، والتعبير عن المشاعر بالطريقة نفسها التي يعبر بها بقية أفرادها. فهي وسيلة تعريف للآخرين، وبطاقة دخول للفرد من أجل الانخراط في نشاطات الجماعة. وخلافاً لما درجت عليه نظرية بيرنستاين لم يركز لابوف على تقويم اختلافات اللهجات الاجتماعية، كما لم يقر تلك التباينات المؤطرة لاستخدامات الطبقتين الكبريين في المجتمع الصناعي (الطبقة الدنيا والطبقة الوسطى). وكان يصر على أن الفروق بين لغة كل منهما ليست فروقاً نوعية، بل تبقى في حدود كمية محدودة، ومتفاوتة كلما تغيرت التركيبة الديموغرافية للمناطق التي يعيش فيها أفراد أي منها.

وكانت الدراسات التي قام بها لابوف بشأن ما يسمى Sub-Stsndard-English قد أظهرت أن قواعدها التركيبية تملك تعقيداً مشابهاً لما هي عليه الحال في لغة الطبقات العليا. ومع ذلك، فإنَّ كلاً من النسقين في طابعه الرسمي له قواعد خاصة به ومختلفة عن النسق الآخر. وبطبيعة الحال فإن هذا الاختلاف يجلب معه أن يُنظر إلى كل منهما بطريقة مختلفة عما يُنظر به إلى الآخر، ويتحقق تقييمه بطريقة خاصة، ولا تتماشى مع تقويم غيره من الأنساق. وبمثل ما هي عليه الجماعات المتحدثة بتلك اللهجة؛ فإن هذه اللهجات نفسها لها أوضاع مختلفة فيما يخص (المستوى المرموق) في المجتمع الكبير بوصفه الوحدة الكبرى الشاملة لمنظومة المعايير الاجتماعية، فبعضها يجري تقليده، وبعضها الآخر يذهب الاختيار لاجتنابه، لأن كل نموذج منها يحيل إلى وضع طبقي معين، أو يساعد على تخمين الانتماء إلى فئة بعينها؛ ومن هذا المنطلق تتكون: (أحسن) أو (أسوأ)، (أجمل) أو (أقبح) من كذا.

ويمكن للمرء أن يدّعي أن ما يطرحه بيرنستاين بوصفه مميزاً للغة الطبقة الدنيا، لا يعدو كونه تميزاً أسهمت في تكوينه ثقافة الطبقة الوسطى لدى المعنيين بهذه الدراسات، وهي ثقافة مؤثرة بدرجة كبيرة في مناحي التعليم والسياسة، وكذلك بناء هياكل الدولة. فمن الطبيعي أن يكون لثقافتهم تأثير في صبغ لغة الطبقة الدنيا بالقصور، والاختلال، والعجز عن استخدامها في التعبيرات عن العلاقات المركبة، وذات التعقيد المنطقي؛ حيث يقترن وصف لغة الطبقة الدنيا

بالطبيعية من خلال سمة التماثل مع لغة الطبقة الوسطى، مما يعني عدم وجود الحدود الاجتماعية والسلوكية بينهما؛ وهو أمر لا يريده المنتفعون من بقاء التمييز الثقافي القائم على فروق لغوية، وهم بالطبع المنتمون إلى الطبقة الوسطى.

تقوم من أجل ذلك (اللهجة الاجتماعية) حسب هذا الاتجاه بدور تثبيت (المعايير الاجتماعية) والمساعدة في تماسك أفراد تلك البيئة. كما تحدد بصورة واضحة وقاطعة التوجهات الاجتماعية لأفرادها. وفي هذا الشأن أظهرت الدراسات الميدانية، أن التحول اللغوي ليس دائماً بهدف خلق (الوحدة اللغوية) بين أفراد المجموعة، بل تكون أغلب التحولات تتحقق وتجري من أجل تثبيت عامل التوازن بين التغير الاجتماعي الحتمي، والعوامل المشتركة التي يتمسك بها أفراد الجماعة، ويذهب ظنهم إلى أن عوامل وحدتهم تتحقق من خلال وجودها؛ فعمليات التواصل المستمرة ليست منفصلة بأي حال عن الثقافة السائدة التي تخضع للتغير المستمر. ووفقاً لميشيل إجار، فإنَّ الأمر يصل إلى أن القواعد أيضاً ليس لها أي معنى دون اعتبار الثقافة؛ فمن خلال تجربته المباشرة عندما حاول أن يحيي أحداً في النمسا باللغة الألمانية تردد: هل سيستخدم الضمير الشخصي الثاني الرسمي أم غير الرسمي؟ فكل اختيار للعبارات المناسبة في الاستخدام اللغوي يتطلب معرفة بثقافة مستخدمي هذه اللغة. إن كل العوامل الثقافية الكامنة تتدخل في صياغة السلوك (الاجتماعي المؤثر في اللغوي حسب نظرية العجز، أو اللغوي المؤسس للاجتماعي حسب نظرية الفروق)؛ بدءاً من المعايير الثقافية والتوقعات، والعلاقات بين الجنسين، والتراتبية الاجتماعية، وربما يصل الحد إلى الفروق الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والدينية والعرقية بين الأقاليم المختلفة (Agar, 2012, p14).

وتقوم بالمثل (اللهجة العرقية ethnolect)؛ فبالرغم من أن الأقليات العرقية تظهر عادة التزاماً بالقوالب اللغوية العامة، إلا أنه يظهر في استخداماتها فروقاً مميزة. وما يؤدِّي إلى نشوء تلك الخصائص اللهجية العرقية هو إحساس بالهوية، وهو إحساس قائم على استبطان التاريخ العرقي من الأجداد والدين والثقافة. وكلما زادت مساحة التفاعل بين أفراد الأقلية العرقية، اتسعت الفروق بين هذه اللهجة واللهجة الاجتماعية الرئيسة أو اللغة المستخدمة في البلاد (Mesthrie, et.., 2011, p103).

الجدير بالذكر أن تلك الاختلافات تصنع عوالم متباينة من التصورات (ومعاني الأشياء وترتيب الأفكار بطبيعة الحال داخل كل تلك المنظومات)؛ ومن أجل فهم هذه التصورات وارتباطها بالواقع، وبمنطق البشر الذين يتعاملون معه، لا بد من الإحاطة بالفروق اللغوية المكونة لأرضيات هذه العوالم، والعلاقات بين عناصرها.

وأخيراً لا بد من الإقرار بأن التواصل في الوقت الحاضر يتطلب ثقافة، كما أن المشكلات التواصلية متجذرة في تحديد (من أنت)؛ من خلال مواجهة اختلاف العقليات، واختلاف المعاني. وهو الاختلاف الذي يربط اللغة بالوعي؛ أما حل المشكلات من هذا النوع، فهو يفضي إلى تكثيف الاهتمام بالثقافة.

وفي حالات الصنف الأول من المجتمعات (مستخدمي نظرية العجز)، يتطلب التواصل وحل مشكلاته التغير من التصنيف الذاتي (بالأفضل) إلى (المختلف). فهم إذا أخذوا الثقافة بجدية، فإنهم سيصلون إلى إجراءات متتابعة ومستمرة من التغير، تستمر طيلة حياتهم. كما أنها تفتح لهم مجالات جديدة في معرفة مزيد من الثقافات الأخرى، وفرصًا من الإمكانات الإبداعية. أما البقاء (دون تغير) في إطار ذلك الفهم، فإنه يؤدي إلى إعطائهم هوية منغلقة، تشبه السجن الاحترازي، الذي يرى من بداخله كل ما هو خارج الأبواب من الثقافة بوصفها خطراً يهدده (Agar, 2012, p19).

وفيما يتعلق بالدراسات التي تبحث في الفروق العنصرية، قام كل من لابوف وهاريس ببحث الفروق بين السود والبيض من أبناء نيويورك في استخداماتهم اللغوية. وخلصت الدراسة إلى أن أسباب تلك التباينات تعود إلى حالات الفصل التاريخية بينهم في الولايات المتحدة الأمريكية (Labov and Harris, 1986, p105) ؛ وعلى الرغم من أنه لم تعد هناك في الغالب حالات فصل أو تمييز عنصري، إلا أن التقاليد اللغوية في بيئات كل منهما قد استبطنت تلك المميزات اللغوية بوصفها محددات للهوية.

إن في داخل كل فضاء اجتماعي، تراتب ثقافي، حيث إن الثقافات لا توجد بمعزل عن العلاقات الاجتماعية، التي تتصف على الدوام بأنها علاقات غير متساوية. وعليه، فإنَّ هناك تراتباً فعلياً بين الثقافات، وهذا التراتب ناتج عن التراتب الاجتماعي. وهناك تأكيد على أن ثقافة الطبقة المهيمنة، هي دائماً الثقافة المهيمنة. ولا يُقصد بذلك أن ثقافة الطبقة المهيمنة لها نوع من التفوق الكامن في ذاتها، أو أن لها قوة انتشار تأتيها من جوهرها الخاص، وتجعل منها قوة مهيمنة على الثقافات الأخرى (طبيعياً)، إنما تتوقف القوة النسبية الخاصة للثقافة، على القوة الاجتماعية النسبية الخاصة بالجماعات التي تسندها. وعليه، فالحديث عن ثقافة (مهيمنة) وثقافة (مهيمن عليها) هو على حد وصف دنيس كوش، ضرب من المجاز؛ إذ إن ما يوجد واقعاً هي اجتماعات اجتماعية تربط بينها علاقات هيمنة وتبعية. وليست الثقافة المهيمن عليها حسب هذا المنظور ثقافة مستلبة، تابعة كلياً. إنما هي ثقافة لا يمكنها ألا تأخذ بعين الاعتبار تلك الثقافة التي لها الهيمنة، إلا أنها قادرة على مقاومة الفرض الثقافي المهيمن (كوش، دنيس، ٢٠٠٧م، ص ص١٢٠-١٢١).

ونادراً ما تكون الطبقة هي العامل الاجتماعي الوحيد المؤثر في التنوع اللغوي، فهناك اتجاه للنظر في عامل الجندر بوصفه مساوياً له في قوة التأثير، وأحياناً بدرجة أكبر من عامل الفرق بين الطبقات. ففي دراسة عن التباينات في لغة المجتمع لدى شباب New England، اكتشف أن استخدام الفتيات للصيغ النموذجية المنتهية باللاحقة (ing) أكثر من استخدام الفتيان، بغض النظر عن انتمائهم الطبقي، كما اكتشف لابوف أيضاً أن النساء في مجتمع مدينة نيويورك أكثر حرصاً من الرجال على التقليل من الصيغ المخجلة، مثلما أنهن أكثر إحساساً بالتنوعات المرموقة؛ ففي الكلام الرسمي كانت النساء من New York city أقدر من الرجال على إظهار الالتزام بالتحول نحو الخصائص التي تتسم بها اللغة المرموقة في مجتمعهم. وكان لابوف يظن أن هذه السمات على وجه الخصوص مما تتميز بها نساء الفئة الدنيا من الطبقة الوسطى. وقد أعاد ذلك –على سبيل التخمين– إلى عاملين يوضحان الفروق في استبطان تلك القواعد المؤدية إلى خيارات كل من الجنسين في ذلك المجتمع؛ أولاً لكونهن يرتبطن أساساً بمهام القيام على تربية الأطفال، والاهتمام بتلاؤمهم مع متطلبات القواعد الاجتماعية، فإنهن يصبحن أكثر شعوراً من الرجال بما يسمى (القيم اللسانية الاجتماعية العلنية). وثانياً، يرتبط هذا الأمر بقضية (رمزية)، حيث إن الفروق الجنسية بين المتحدثين ليست نتاجاً لعوامل فيزيائية بحتة، بل أكثر من ذلك بموقف تعبي يكون مؤطراً اجتماعياً، ليصبح مناسباً لأحد الجنسين أو للآخر (Mesthrie, et.., 2011, p102).

يجدر القول إنه في سياق الدراسات التي تُعنى بالفروق الجندرية، فهي غير ثابتة في نتائجها، حيث تتحدد حسب البلدان التي تجري فيها، فقد تعرضت نتائج دراسة لابوف مع ما أجري على مجتمعات في الشرق الأوسط وجنوب آسيا، كما أن الباحثين أنفسهم لديهم وجهات نظر مختلفة فيما يخص الظاهرة. ففي بعض الدراسات الباحثة في المجتمعات العربية، تشير النتائج إلى كون المرأة العربية تختار قاصدة الأساليب النموذجية الأكثر معيارية، أو شيوعاً في الاستخدام، مثل اختيار الهمزة على سبيل المثال في نطق القاف في اللهجة القاهرية، وإن كانت ليست من المنتمين إليها، وعلى وجه الخصوص المتعلمات منهن. أما الرجل المتعلم فيمكنه تجاهل ذلك النموذج المعياري أو الشائع (أي أن لديه القدرة على الخروج عن السائد). وتشير بعض الدراسات إلى أن المرأة في الشرق العربي تسعى إلى استخدام نموذج اللغة المرموقة على حساب المعيار النموذجي؛ في حين أن المرأة الغربية ليست مضطرة إلى الاختيار، لعدم وجود فرق بين المستوى النموذجي والمرموق. أما في العربية فهناك فروق في النمذجة؛ حيث يكون المستوى المعياري أكثر مقبولية في

الدراسات الدينية، وأيضاً للأهداف التعليمية، لكن تكون قيمتها الاجتماعية في المجتمعات العربية المعاصرة أقل مستوى في التقدير، وفيها من الإيحاءات بعدم العصرنة، أو ضعف المستوى الاجتماعي (Daher, 1987, pp146-147). وربما كان مسعى المرأة لاختيار السلوك اللغوي الذي يمنحها التقدير والاحترام، هو الذي يجعلها تتبع العرف اللغوي والاجتماعي. أما الرجل فهو أكثر خروجاً على الأعراف، وتمرداً على المواضعات الاجتماعية، وتبرماً بالأدوار المرسومة له (برهومة، عيسى، ٢٠٠٢م، ص١٣٠). وعلى مستوى السلوك اللغوي غير اللفظي فإن المرأة تمارس هذا السلوك بدرجة أعلى منه عند الرجل، وربما يعود ذلك إلى طبيعة التركيبة الاجتماعية التي فرضت على المرأة نسقاً محدداً، ورسمت لها دوراً ثابتاً وانتظرت منها الالتزام به. لذلك فإنَّ المرأة تلجأ إلى السلوك غير اللفظي، لبناء عالم رمزي تمارس فيه التعبير بوسائل غير لفظية، لأن تلك التركيبة الاجتماعية قد حظرت عليها بعض الكلام، وبعض أساليبه. إن اتساع الشقة في الخصائص اللغوية الفاصلة المميّزة للجنسين، تتناسب طردياً مع التواصل القائم بين الجنسين، فكلما شاركت المرأة الرجل في صوغ الحياة، وبناء المجتمع، فإن الاختلافات تقل بين الذكر والأنثى. وكلما زاد انعزال المرأة عن الرجل في هذا البناء وفي مناحي الحياة، فالحاصل بالضرورة هو اتساع الفروق اللغوية للجنسين. فاللغة إذن في جوهرها متأصلة في حقيقة الثقافة، وفي نظم الحياة والعادات عند كل جماعة، ولا يمكن شرح اللغة إلا بالرجوع إلى بيئة هذا الكلام، والظروف التي تخلّق فيها (برهومة، عيسى، ٢٠٠٢م، ص ص١٤٦-١٤٧).

خاتمـــة

الخلاصة أنه توجد دوائر ينطلق منها المرء في تعبيره عن الأفكار، وفي استقباله أفكار الآخرين. وتلك الدوائر تصنعها من جهة أولى عوامل واعية لدى الإنسان، ويتمثل ذلك في استبطانه الواعي للمستبطن في داخل ذهنه أو داخل نفسه ووجدانه، وهو ينطلق في هذه العملية من رغبته الأكيدة في التواصل مع المحيطين به. كما تخلق هذه الدوائر نفسها نقاط التقاء مع من يشترك معه في العناصر الرئيسة، من مكونات الزمان والمكان والمصالح المتقاربة أو المتكاملة. ومن جهة ثانية أكبر وأعمق، تسهم في صناعة هذه الدوائر عوامل اللاوعي. وهذه العوامل تخلق بيئة متجانسة ومثالية للتواصل، وهي في الأساس: اللغة والثقافة؛ وهما يتكاملان في صياغة المكونات الاجتماعية. لكن اللغة بمفردها لا تمثل أرضية صالحة للتوافق مع الآخرين في أفكارهم، والوصول إلى قواسم مشتركة يمكنها فك رموز الشفرة الاجتماعية. ويمكن القول أيضاً إن الثقافة وحدها ليس من السهل أن توصل إلى

حلول للمشكلات التي تعوق التواصل؛ حيث إن معرفة العناصر الثقافية، والتعرف على أبعادها وعلاقات بعضها ببعض، تتطلب تعمقاً في الذات الكلية للشريك في عملية التواصل. إن هذا يعني أن على المرء أن يكون في إطار تلك الدوائر، وبصحبة هذين المكونين معاً (اللغة والثقافة)، والغاية من ذلك أن تستقيم له تصورات العالم بدرجة أقرب ما تكون إلى تصورات الطرف الآخر. كل هذا يمكن وصفه بأنه عملية مركبة، لكنها تتحقق ضمن العمليات الوسيطة التي يُطلق عليها (الاستبطان)، وهي عمليات تتنفذ بوعي في الحالات الفردية، وبإجراءات كلية عميقة ينفذها اللاوعي في الحالات الجمعية.

المراجـــع والمصادر

المراجع العربية:

برهومة، عيسى. *اللغة والجنس- حفريات لغوية في الذكورة والأنوثة.* عمّان (الأردن): دار الشروق، ٢٠٠٢م.

تشومسكي. *اللغة ومشكلات المعرفة.* ترجمة/ حمزة المزيني. الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٩٠م.

سكوفل، توماس. *علم اللغة النفسي.* ترجمة/ عبد الرحمن العبدان. الرياض: مركز السعودي للكتاب، ١٩٩٤م.

شمس الدين، جلال. *علم اللغة النفسي- مناهجه ونظرياته وقضاياه.* ج١، الإسكندرية: مؤسسة الثقافة الجامعية، ٢٠٠٣م.

غيرتز، كليفورد. *تأويل الثقافات.* ترجمة/ محمد بدوي. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٩م.

كوش، دنيس. *مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية.* ترجمة/ منير السعيداني. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٧م.

هجمان. *اللغة والحياة والطبيعة البشرية.* ترجمة/ داوود حلمي السيد. ط٢، القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٠م.

المراجع الأجنبية:

Agar, Michael. "Cultural Blends". *A cultural Approach to Interpersonal Communication- Essential Readings*. Second Edition, UK & USA: Blackwell Publishing Ltd, 2012.

Akmajian, Adrian and Demers, Richard and K. Farmer, Ann and M. Harnish, Robert*: Linguistics- An Introduction to Language and Communication.* Fifth Edition, Cambridge, Massachusetts: The MIT Press, 2001.

Bourdieu, P. : *Language and Symbolic power*. ed. J. B. Thompson, trans: G. Raymond and M. Adamson. Cambridge, MA: Harvard university press, 1991.

Daher, Nazih. "Arabic Sociolinguistics-state of the Art". *Al-Arabiyya* 20 (1987). [pp. 125-159].

Labov, W. *Sociolinguistic Patterns*. Philadelphia, University of Pennsylvania Press, 1972.

Labov, W. and Harris, W. "De facto segregation of black and white vernaculars". In: *Diversity and Diachrony*. Ed. Sankoff D. Benjamins, Amsterdam. 1986.

Mesthrie, Rajen and swann, Joan and Deumert, Ana and L. Leap, William : *Introducing Sociolinguistics.* Second Edition, Edinburgh: Edinburgh University Press, 2011.